دراسات فنية
مخبر الفنون والدراسات الثقافية
جامعة أبو بكر بلقايد تلمسان
Algerian Scientific Journal Platform
مخبر الفنون والدراسات الثقافية

المجلد: 12 العدد: الأول (2025) ص 30 / 43

بانوراما عامة للجهود البحثية والنقدية في المسرح التونسي وعلاقتها بالمناهج في العلوم الإنسانية

A general panorama of research and critical efforts in Tunisian theatre and their relationship with methodologies in the Human Science

عبد الحليم المسعودي

المعهد العالي للفن المسرحي بتونس، جامعة تونس abelhalimmessaoudi@yahoo.fr

معلومات المقال

تاريخ الارسال:
2025 / 09 /17
تاريخ القبول:
2025 / 11 / 03

الكلمات المفتاحية:
- ✓ التأريخ المسرحي
- ✓ النقد الصحفي
- ✓ السياسي والأيديولوجي
- ✓ جون دوفينيو
- ✓ المقاربة السوسيولوجية
- ✓ المقاربة الأنثروبولوجية
- ✓ المقاربة السيميولوجية

الملخص: (لا يتجاوز 10 اسطر)

ترصد هذه المقالة نشأة وتطور النقد المسرحي في تونس منذ بداية الفعل المسرحي في مطلع القرن العشرين منذ نشأة الجمعيات المسرحية مرورا بمرحلة الاستقلال وتأسيس الدولة الوطنية ونشأة الجامعة التونسية وصولا إلى مرحلة التسعينات وما بعدها. كما تحاول هذه المقالة من خلال الرجوع إلى المدونة النقدية المسرحية المكتوبة رسم بانوراما عامة لهذا التراكم النقدي المتعلق بمسارات المسرح التونسي، والنظر في المنعرجات المعرفية لهذا النقد وصلاته بالتحولات السياسية والاجتماعية في المحيط التونسي وكذلك علاقة هذا النقد المسرحي بالبحث الأكاديمي والوقوف على استيعابه للمقاربات المنهجية التي توفرها العلوم الإنسانية الحديثة كالمقاربة السوسيولوجية والمقاربة الثقافية الأنثروبولوجية والمقاربة السيميولوجية والمقاربات المفتوحة على الأفق الجمالي وذكر أهم ممثلي هذه المقاربات من نقاد وباحثين أكاديميين.

Article info

Received ……..
Accepted ……..

Keywords:
- ✓ *Theatrical Historiography*
- ✓ *Press Criticism*
- ✓ *Political and Ideological*
- ✓ *Jean Duvignaud*
- ✓ *Sociological Approach*

Abstract : (not more than 10 Lines)

This article deals with /traces the emergence and the development of theatre criticism in Tunisia from the early theatrical activities at the beginning of the 20th century, starting with the establishment of theatre associations, through the independence era and the foundation of the National State and The Tunisian University, Up to the 1990's and beyond.The article seeks to provide a general panorama of the critical accumulation related to the trajectoires of Tunisian Theatre by reffering to the body of written theatrical criticism.It also explores the epistemological shifts in this criticism and it's connection to the political and social transformations within the Tunisian context. Furthermore, the article examines the relationship between theatrical criticism and academic research evaluating it's engagement with the methological approaches offered by modern human sciences.

المؤلف المرسل : عبد الحليم المسعودي

مقدمة:

لا يكاد المسرح يستقيم في فاعليته الاجتماعية والرمزية الجمالية إلا إذا تمكّن من إنشاء السند الفكري الذي يقوم عليه كخلفية معرفية وتجربة إدراكية. وما هذا السند الفكري إلا النقد المسرحي الذي يعتبر قرينا ومرافقا لكل تجربة مسرحية مهما كانت طبيعتها وتجلياتها. وقد بين تاريخ المسرح الغربي أن النقد المسرحي هو وليد الفعل المسرحي نفسه إمّا أن يكون إنتاجا فكريا من داخل النسق المسرحي نفسه، أو ومن خارجه. والثابت أن النقد المسرحي كخطاب وبقطع النظر عن وظيفته المعيارية والتقييمية فإنه في جوهره يعد جزءا لا يتجزأ من المعرفة المسرحية كما سبق وأن بيّن ذلك جون ديفينيو Jean Duvignaud في أطروحته "سوسيولوجيا المسرح" (Sociologie du théâtre)وحدّد ثوابتها من خلال سؤال الطبيعة و الجوهر والأصل و مشروع القراءة السوسيولوجية الجمالية التي يسميها بـ " النصيب البروميثيوسي للواقع الاجتماعي " (la part prométhéenne de la réalité sociale). (Duvignaud, 1965)

والناظر في نشأة النقد المسرحي في التجارب المسرحية العربية سيدرك أن هذا النقد قد ولد في تلابيب الاهتمام الأدبي أولا بالظاهرة المسرحية في انتظار تأصل هذه الممارسة المسرحية عند نخب هذه المجتمعات المتفاعلة مع التحولات السياسية والثقافية في منتصف القرن الماضي، وليتحوّل هذا النقد وضمن مختلف تجلياته شيئا فشيئا إلى ممارسة ترافق التجارب المسرحية وتؤسّس لأدبياته ولشرعيته الرمزية ضمن النسيج الثقافي الذي تنحته هذه المجتمعات الملتحقة بركب التطور والحداثة. ولأن لكل تجربة مسرحية عربية شروطها وخصائصها، فإننا سنحاول في هذه الدراسة الأولية أن نحدّد أهم شواغل الدراسات النقدية في تجربة المسرح التونسي من نشأة الجهد النقدي المسرحي وصولا إلى واقع الدراسات النقدية وإبراز أهم اتجاهاتها وعلاقة هذه الدراسات بالمناهج في العلوم الإنسانية عامة.

2. تجليات ما قبل ظهور النقد المسرحي في تونس

إذا ما سلمنا أن النقد المسرحي هو في جوهره الدراية بالشأن المسرحي أو بجوانب منه، وإذا سلمنا أيضا بأن هذه "الدراية " مهما كانت طبيعتها يمكن أن تشكل تلك المعرفة المسرحية الجنينية حول المسرح فإنه بالإمكان اعتبار الخطاب حول اكتشاف الظاهرة المسرحية في شكلها الأوروبي عند نخب الإصلاح في التاريخ التونسي الحديث بمثابة اللبنات الأولى لتشكل هذا الخطاب الما قبل نقدي. وأهمية هذا الخطاب (أو الخطابات) تكمن في كونه تعبير عن إدراك يتنزل ضمن الدائرة الواسعة لمفهوم المشروع الإصلاحي القائم على محاربة الاستبداد المعطل للتقدم، وعلى مفهوم وجوب الأخذ بوسائل التحضر والترقي وأسبابه ومكانة الثقافة والفنون في حياة الشعوب الغالبة. ويمكن في هذا الإطار أن نشير إلى خطابات كوكبة من المصلحين اللذين دافعوا كل حسب درجة علمه وموقعه عن الظاهرة المسرحية المكتشفة في سياق رحلاتهم للبلدان الأوروبية.

وتتسم هذه الخطابات عند هؤلاء المصلحين من أمثال أحمد ابن أبي الضياف في "اتحاف أهل الزمان"، وخيرالدين باشا في "أقوم المسالك"، والشيخ محمد بيرم الخامس في "صفوة الاعتبار"، ومحمد السنوسي في "الرحلة الحجازية"، ومحمد بن الخوجة في "سلوك الإبريز في مسالك باريز" بنزوعها نحو توصيف الظاهرة المسرحية والتعريف بها والتأكيد إلى أن الظاهرة المسرحية في البلاد الأوروبية سبب من أسباب مظاهر التقدم والرقي. هذا وتوزعت انطباعاتهم تلك من الإعجاب والانبهار إلى التوصيف إلى إدراك هذه المحاسن الكامنة في الفن المسرحي دون الدعوة صراحة إلى تبني هذا الفن بحكم سيطرة فكر المقاصد وثقله الديني والأخلاقي على أذهانهم مما أوقع هؤلاء في حيرة أمام هذه الظاهرة المسرحية التي يدركون ارتباطها بالتمدن والتحضر. وفي هذا السياق يشير محمد مسعود إدريس إلى "أن هذه الحيرة أمام هذا المظهر الجديد من مظاهر حضارة الغرب دفع بالرّحالة التونسيين إلى محاولة تقريبه بالرجوع إلى ما يناسبه في الحضارة العربية الإسلامية، وفي الواقع فإن هذا الانبهار والحيرة لم يكن يشمل جانب المسرح فقط، بل كامل مظاهر الحضارة الغربية عامة." (إدريس، دراسات في تاريخ المسرح التونسي1881-1956، 1993). ومهما يكن من أمر فإن هذه الخطابات حول المسرح عند كوكبة المصلحين في نهاية القرن التاسع عشر على غاية من الأهمية لأنها سوف تكون بمثابة المرجعية التي سوف

يستند عليها الجيل الوطني اللاحق في اهتمامهم وتبنّيهم للظاهرة المسرحية وتشغيلها كأداة من أدوات الدفاع عن الهوية الوطنية وبناء الذات وسعيهم في تأصيل الممارسة المسرحية وما تستلزمه من شروط معرفية ستترعرع في تلابيب الصحافة الوطنية حين تقدم النخب الوطنية المثقفة في الكتابة عن المسرح وشؤونه طوال عشرينات وثلاثينات وأربعينات القرن الماضي.

3. الصحافة والنقد المسرحي المبكر في تونس

لعبت الصحافة التونسية الناطقة باللغة العربية دورا بارزا في مساندة الجهود المسرحية التونسية منذ بدايتها، أي منذ نشأة الفرق المسرحية التونسية في تمفصل العشرية الأولى والثانية من القرن الماضي (فرقة النجمة1908، فرقة الشهامة1910، فرقة الآداب1912، 1908). ويعود هذا الأمر إلى كون الصحافة الناطقة بالعربية كانت تتقاطع مع تشكلات أجيال الحركة الوطنية التي كان أفرادها طرفا أساسيا في إنشاء الحراك الجمعياتي والحزبي الذي تقاطع بدوره في بعث الحركة المسرحية باعتبارها امتدادا له، خاصة وأن جل الزعماء السياسيين المنحدرين من حركة "الشباب التونسي" كانوا إما باعثين لهذه الفرق أو أعضاء نشطين فيها ويكفي أن نذكر بالدور الكبير الذي لعبه الزعيم الوطني الشيخ عبد العزيز الثعالبي ودوره الأساسي في توجيه فرقة "الآداب " الشهيرة التي شكلت هذا الوعي السياسي الوطني. وكان دور المساندة هذا لم يتعدى في بداياته حدود الإخبار عن نشاط الفرق المسرحية والإعلان عن عروضها. لكن الأمر تطور شيئا فشيئا ليتحول إلى عناية مقصودة تستند إلى وجوب مؤازرة الرفق المسرحية في حسها الوطني ضد التضييقات التي يمارسها المستعمر الفرنسي على الفرق المسرحية التي رأى فيها خطرا يهدد مشروعة الخفي في محو الشعور الوطني لدى التونسي وتشويه ملامح انتساب التونسيين إلى هوية قائمة الذات لغويا ودينيا. كما أن هذه الصحافة قد ثمنت جهود الفرق المسرحية في تقديم أعمالها باللغة العربية وبإقدامها على تذكير التونسيين من خلال أعمالها المقدمة بنماذج إيجابية تحرك لدى المتفرج شعور الانتماء الوجداني والعاطفي لحضارة عريقة من خلال تقديمه لشخصيات تاريخية بطولية تحث على الاستنهاض والكفاح والجهاد المقدس (1).

ويمكن اعتبار أول نص نقدي مسرحي مبكر هو ما كتبه المحامي محمد نعمان في جريدة "الزهرة" في شهر أفريل من عام 1911 بمناسبة عرض "صلاح الدين الأيوبي" الي قدمتها فرقة "الآداب"، واللافت في هذا المقال النقدي أن صاحبه يتحدث عن فن التشخيص، أي التمثيل ويذكر بأصول الأوروبية مستشهدا بفن التمثيل عن موليار (بوبكر خلوج وآخرون). إن هذه المحصلة من الكتابات حول المسرح في الصحافة العربية في تونس يمكن وخاصة بعد الحرب العالمية الأولى اعتبارها تمهيدا لبدايات ظهور النقد المسرحي في مطلع ثلاثينات القرن الماضي. ويمكن أن نلخص أهم شواغل هذا النقد المسرحي المبكر في الصحف السيارة في جملة من الشواغل الأساسية التي يمكن اعتبارها تدور في فلك التفكير المقاصدي: أولها: الدفاع عن فن تواصلا لتلك الإشارات الأولى التي احتضنها الخطاب الإصلاحي في نهاية القرن التاسع عشر والذي اكتفى بالنظر إلى الظاهرة المسرحية على أساس جوازها كمظهر تربوي من مظاهر تهذيب الأخلاق. وهو دور مهم لأن هذا الخطاب النقدي المبكر كان يدرك المعطلات والارتدادات في الذهنية المحافظة التي بإمكانها أن تشكل عقبة أمام الممارسة المسرحية وتأصيلها. ثانيها: الدّفاع عن اللّغة العربية وتنزيلها ضمن الحالة التونسية حين تتمّ الدّعوة الضّمنية لـ"الأمّة التونسية "لكي تحتضن هذا الفن وممارسته حفاظا على اللغة وبالتالي الحفاظ على هويتها الثقافية انتسابا للمرجعية الحضارية الأوسع التي تمثلها الحضارة العربية الإسلامية، وانخراطها في مسيرة التقدّم الأممية. وثالثها: بالدّفاع عن المسرح من الزاوية الأخلاقية حيث أنّ هذا النقد ذهب إلى اعتبار المسرح أداة تربوية لتهذيب الأخلاق والحفاظ على مكارمها وعلى القيّم الموروثة في الثقافة العربية المرتبطة بالوفاء والإباء

---

(1) – تعتبر مسرحية "صلاح الدين الأيوبي" التي كتب نصها نجيب الحداد وهي من ريبرتوار سليمان القرداحي من أكثر المسرحيات تناولا عند الفرق المسرحية وخاصة من طرف فرقة "الآداب"، إلى جانب أعمال مسرحية أخرى ذات مضامين حضارية وتراثية وسياسية كمسرحية "ثارات العرب" و مسرحية "شهداء الوطنية " ومسرحية "هارون الرشيد " ومسرحية "عنترة" وغيرها.

والبطولة، ويعد هذا ردا استباقيا مستبطنا لاتهام المسرح بترويج الفسق والتفصّي الأخلاقي والميوعة وهي تهم عادة ما تأتي من طرف المتشددين دينيا ومن التقليديين المحافظين. رابعا: الدعوة إلى وجوب الحفاظ على القالبية الأسلوبية والفنية للفرق والأجواق المصرية على شاكلة ما قدمه عبد القادر المصري وسليمان القرداحي باعتبار ما قدموه في تونس من قوالب فنية درامية وغنائية يناسب الذائقة التونسية باعتبارها الذائقة المشرقية ذائقة أصيلة تلتقي مع أهواء التونسيين وتناسب مخيالهم الثقافي. (المسعودي، المسرح التونسي جدلية الجمالي والسياسي، 2009 – 2010)

ومن الملاحظ أن هذه الشواغل التي عبر عنها هذا النقد المسرحي البكر في الصحف السيارة لم تعمق الأسئلة الحقيقية المتعلقة بالفن المسرحي سواء تعلق الأمر بفن الكتابة الدرامية أو الأساليب الإخراجية أو الأدائية وإنما ظل هذا النقد المسرحي المبكر سابحا في بعض العمومية المتعلقة بالعثور على شرعية ما لهذا الفن المسرحي وممارسته والدفاع عنه والسعي إلى خلق ألفة ثقافية وعاطفية معه.

4. بداية النقد المسرحي في تونس

يشير المؤرخ والباحث محمد مسعود إدريس إلى أن "المرحلة الهامة لتطور النقد المسرحي في تونس قد انطلقت بداية من سنة 1930 مع جريدة (الوزير) التي خصصت صفحة للفنون وبها ركن للمسرح، وكان يشرف عليها الشاعر والأديب محمود بورقيبة" (إدريس، دراسات في تاريخ المسرح التونسي1881-1956، 1993). ويعوز الباحث هذا الاعتبار إلى كون محمود بورقيبة قد اهتم في كتابته النقدية حول الأعمال المسرحية كونها اهتمت بالعرض المسرحي ومكوناته من حيث التمثيل والإخراج والإنارة والديكور والملابس، ويبدو أن مثل هذه التناولات المتعلقة بالعرض المسرحي تعد أمرا جديدا على ما كان يكتب حول المسرح سابقا مما يعني أن هناك معرفة مسرحية مسبقة لدى الناقد تخول له القيام بهذه المهمة. ولعل الناظر في الكتابات النقدية المسرحية في الصحف التونسية السيارة لفترة ما بين الحربين كجريدة "الوزير" و"الزمان" و"النديم" و"الشباب" و"السرور" و"الصواب" و "النهضة" وغيرها من الصحف سيدرك أهمية العلاقة العضوية بين النشاط المسرحي وبين الجهود النقدية المسرحية سواء من خلال الكتابة عن الأعمال المسرحية أو متابعة النقاد اللصيقة للحياة المسرحية التونسية في تفاصيل أحوال فرقها وأهلها من مديري فرق وممثلين وممثلات ونقل الصراعات والتنافس بين الفرق فيما بينها. كما هيمن على نشاط الكتابة النقدية المسرحية في هذه الفترة ما بين الحربين ثلاثة نقاد هم الأغزر إنتاجا وهم محمود بورقيبة السالف الذكر وحسين الجزيري وجمال الدين بوسنينة (محمد مسعود إدريس، حافظ الجديدي، 2011)، إلى جانب محمد بيرم التونسي ومحمد بن فضيلة وسعيد أبو بكر ومصطفى شعبان وأحمد زروق ومحمد زين العابدين السنوسي وعبد العزيز العروي ومحمد الحبيب ومحمد الجعايبي (إدريس، دراسات في تاريخ المسرح التونسي1881-1956، 1993).

5. النقد المسرحي في اتجاه تأصيل معرفة مسرحية

مع تراكم هذه المدونة النقدية في الصحافة السيارة طوال ثلاثينات وأربعينات القرن الماضي ومع تأثر الحياة الثقافية والاجتماعية بالأحداث التاريخية والسياسية التي مست الكائن التونسي في أعماقه اتجهت النخبة المسرحية التونسية في طريق توجيه الممارسة المسرحية لتكون أداة لبناء الوعي الوطني بما يعني ذلك وجوب خدمة المسرح لقضية التحرر من الاستعمار والحفاظ على اللغة وتأكيد الهوية الثقافية والحضارية عند التونسيين. هذا الركام النقدي المسرحي بشتى أنواعه الذي تمثله تلك المدونة الحاصلة مكّن من بناء قاعدة لنهوض نواتات نقد مسرحي هي أقرب للتنظير المبيّت، أو لنقل دعوة مضمرة إلى وجوب إقامة قاعدة معرفية للممارسة المسرحية. وهذا النهج من النقد المسرحي توخاه ناقد وكاتب مسرحي هو الأستاذ محمد الحبيب المحامي الذي وجه الكتابة عن المسرح في اتجاه هذا المنحى المعرفي التعليمي. ونعتقد أن سلسلة المقالات التي كتبها هذا الأخير في شكل

حلقات نظرية تحت عنوان "سوانح عن التمثيل في تونس" (محمد مسعود إدريس، حافظ الجديدي، 2011) لجديرة باعتبارها علامة طريق فارقة في مسار هذا النقد المسرحي. فهي تعبر بشكل عن مدى تطور الوعي الفني لدى النخبة المسرحية التونسية، وذلك لأنها جاءت تعبيرا صريحا على ضرورة تجاوز الخطاب المسرحي للنظر للمسرح في تحديده، على أساس مزاياه الأخلاقية واللغوية أو النظر إليه في تونس في حقيقته التاريخية من منطلق إدراك بداية التراكم في تجربة المسرح التونسي التي استوفت ربع قرن كامل، ومن باب إدراك الباحث التونسي في تاريخ المسرح لمسؤولية الإلمام بهذا التاريخ وإدراك صعوبة البحث في ذلك أيضا لقلّة المصادر، فمحمد الحبيب يعطي من منطلق موضعة المسرح التونسي في السّياق التّاريخي مهمّة جديدة لا تخفي دلالة الرّغبة في تجذير فنّ المسرح في سياق الثّقافة التونسية بل هو أحد مكوّناتها وهو ما يشكّل منحى جديد في الحديث عن أهميّة المسرح كوحدة مساهمة في ثقافة الأمّة.

إنّ إدراك التطور التاريخي للظاهرة المسرحية في تونس تاريخيا والتي يعود بها الباحث على العصر الرّوماني، يمثل صحوة معرفية مهمّة في مقاربة المسرح المقاربة التأريخية، وهو أمر يندر وجوده في الحديث عن المسرح من منطلق المعطيات التاريخية باستثناء ما كتبه محمد السنوسي في "الرّحلة الحجازية" عندما تحدّث عن الأصول التاريخية للمسرح .وإلى جانب تقييمه لمسألة الإخراج بما يعني عنده العناية بالمناظر والملابس وفن الأداء، فإن الأستاذ محمد الحبيب يتعرّض في "سوانحه" المسرحية أيضا إلى مسألة النّقد المسرحي في تونس، ويبدي أيضا عدم رضاه عمّا يكتب حول المسرح على ظهر الجرائد، وهو بموجب ما يستوجبه فن الإخراج من معرفة بالمسرح لأن النقد المسرحي أيضا يستوجب على من يتعاطاه تكوينا ومعرفة بالمسرح، وهو في ذلك يعطي المثال على حالة النقد والناقد المسرحي في البلدان الأوروبية وعلاقته المتينة بالدراية المسرحية.

ولعلنا نقول إنه مع محمد الحبيب تبلورت فكرة النقد المسرحي من زاوية كونه معرفة مسرحية قبل كل شيء، وأنه أداة لبناء الوعي وتوظيف المسرح كمركب من المركبات الثقافية لنحت الشخصية التونسية، بل يمكن القول أيضا أن كل هذه الآراء التي يرشح بها هذا الفكر النقدي تصب في أفق مشروع بناء مسرحي وطني متحولا في ذلك إلى سردية فيها مسحة من التعليمية تارة ومن اللهجة الوصائية تارة أخرى دون إهمال ربط المسرح بوظيفته التربوية والاجتماعية والسياسية. وهذه السردية سنجدها متواصلة في أواخر خمسينات القرن الماضي مع كاتب وناقد ومخرج مسرحي هو حسن الزمرلي خاصة في مقالته الشهيرة "هلموا نبن مسرحنا القومي" (الزمرلي، 1961) وكذلك سنلمسها أيضا في مطلع الاستقلال وغمار بناء الدولة الوطنية مع الخطاب الشهير للزعيم حبيب بورقيبة " (بورقيبة، 1979) وهو خطاب جاء في صبغة بيانية تعيد رسكلة وتدوير جملة تلك الأفكار والآراء النقدية التي انطلقت عند محمد الحبيب وعند حسن الزمرلي وهي أفكار وآراء لا تخلو بدورها من أصداء الفكر الإصلاحي التي رددته النخب الوطنية التونسية منذ حركة الشباب التونسي ومرورا بأفكار الطاهر الحداد ومحمد على الحامي ووصولا إلى رؤية الزعامة السياسية لدور المسرح في بناء مجتمع دولة الاستقلال مع الحبيب بورقيبة.

6. البيان السياسي ودوره في بلورة مهمة المسؤولية النقدية

يمكن اعتبار الخطاب السياسي الذي ألقاه الزعيم الحبيب بورقيبة حول المسرح في 07 نوفمبر 1962 قد رسم وبشكل واضح ونهائي مهمة الممارسة المسرحية في دولة الاستقلال وتحديد أدواره المتعددة. فهذا الخطاب يمكن اعتباره الحدث الأبرز في سياق علاقة المسرح بالشأن السّياسي في هذه المرحلة المفصلية من تاريخ البلاد، وهي مرحلة الاستقلال وبناء الدولة الوطنية، وهو أيضا بمثابة الالتفاتة البارزة للسلطة السّياسية للمجال الثقافي بشكل عام والمسرحي بشكل خاص، كما أنه قد شكل ما يمكن أن نسميه بالبيان التأسيسي للمسألة المسرحية في تونس والذي سيدشن على ضوئه الفعل المسرح التونسي مرحلة جديدة (المسعودي، بورقيبة و المسرح، قراءة في بيان خطاب تأسيسي، 2016).

ويمكن في هذا الساق وعلى ضوء ما جاء في هذا الخطاب/البيان أن نرسم المهام الأساسية الجديدة التي من الواجب على الممارسة المسرحية القيام بها، وهي مهام مرتبطة بشكل عضوي مع مشروع استكمال بناء الذات التونسية على المستوى الرمزي والوجداني في إطار مشروع بناء الدولة

الوطنية، كما يمكن أن نلخص هذه المهام في أربع مهام أساسية هي: أولا، وجوب أن يكون المسرح جزءا لا يتجزأ من معركة البناء والتشييد ولا يعني هذا في الحقيقة إلا استفراد الدّولة بالمسألة الثقافية والنظر للثقافة والتّعامل معها من منظار استراتيجية سياسية تستوجب التخطيط والإسناد، وحمل الدّولة على الإشراف الكامل على الثقافة واحتكار هذه المهمّة من طرف جهاز الحكم. ثانيا، القطيعة مع ماض مسرحي مأزوم ووجوب تقييم الواقع المسرحي وربطه برهان قدرة المسرح التونسي على مزاحمة المسارح الأخرى الأجنبية وهو رهان محمول على وجوب استقلالية كل ما هو تونسي وتميزه وقدرته على المنافسة، ولا غرابة أن تكون الدعوة لـ "التَّوْنسَةُ" في هذا السّياقِ هي أهمّ هذه الرّهانات التي يعبّر عنها بفكرة المسابقة الرّياضية مع الآخر كما ورد في الخطاب / البيان. ثالثا، مهمة المسرح ضمن المأمورية التثقيفية والتربوية، ويتمثل ذلك في تمكين الرّاغبين في تعلّم المسرح على قواعده الصّحيحة من الاطلاع على المسرح الأجنبي في أوروبا أو في مصر من خلال تمكينهم من المنح الدراسية قصد إعدادهم كإطارات مختصّة في التنشيط المسرحي ليعاضدُوا برنامج التكوين المسرحي في المستقبل. رابعا، الاتجاه نحو تقاليد وإيتيقا مسرحية ودعوة بورقيبة الممثل التونسي إلى الرّفع من مستواه الذّهني والثقافي ووجوب تحلّي هذا الممثل بالأخلاق من خلال احترامه لنفسه ومهنته وللجمهور، بمعنى تمكن الممثل من امتلاك أخلاقيات أو إيتيقا خاصة به على قياس مهمته ورسالته في المجتمع، فبورقيبة متمسّك بأن للمسرح رسالة أخلاقية، وهي تتعدّى الممثل لتطال الجمهور.

إن سعي الدولة الناشئة إلى الإشراف والوصاية الكاملة على الشأن المسرحي والاتجاه في مأسسة النشاط المسرحي سيأثر بشكل مباشر على الممارسة المسرحية التي ستحاول القطع مع الأساليب البالية والهاوية، كما سيأثر ذلك على التعامل النقدي مع المسألة المسرحية وإنتاجاتها خاصة وأن تأسيس الجامعة التونسية في مارس عام 1960 ونشوء جيل جديد من النخب الجامعية المثقفة والمتبنية لمشروع التحديث قد ساهم لاحقا في ظهور تصورات جديدة للممارسة المسرحية عبرت عنها جيل الستينات و السبعينات الذي تمكن إما من الاطلاع على التجارب المسرحية الغربية (خاصة التجربة الفرنسية) ضمن بعثات أو القيام بتربصات أو مشاركات في مهرجانات دولية أو من خلال دراسة المسرح في الجامعات الأوروبية الشيء الذي ساهم في جهود دراسية ونقدية جديدة تحاول الاستفادة من الحقول المعرفية في مجال العلوم الإنسانية .

ومهما يكن من أمر فإنه منذ ستينات القرن الماضي إلى حدود نهاية التسعينات ارتسمت ملامح عامة للممارسة النقدية المسرحية بوصفها ممارسة عليمة تعتمد جملة من المعارف في مجال حقول العلوم الإنسانية ومناهجها وتجلت إما داخل الجامعة في شكل بحوث أكاديمية أو في مجال النقد المسرحي في الصحافة المكتوبة الذي مارسه بعض النقاد الجادين المتحدرين من أصول أكاديمية والقاطعين مع الكتابة النقدية الانطباعية. وفي هذا السياق يمكن أن نوزع أبرز هذه الجهود النقدية على ست مجلات من الاهتمامات النقدية المسرحية التي استبطنت مناهج العلوم الإنسانية وكالبحوث التأريخية العامة كالبحوث الأدبية والبحوث السوسيولوجية، والأنثروبولوجية، والسيميولوجية، والمقاربة النقدية الأيديولوجية.

7. النقد المسرحي والجهد التأريخي

يشكل الجهد الدراسي والبحثي التأريخي من أهم المجالات البحثية في سياق النقد المسرحي العام، وهو جهد يتصدر مشهد الاهتمامات البحثية والنقدية. وهذا أمر طبيعي لأنه جهد يحاول الإلمام بالذاكرة المسرحية والاجتهاد في كتابة تاريخ عام لنشأة واستمرار الفعل المسرحي وعلاقته العامة بالتاريخ الوطني. ويمكن في هذا الإطار أن نشير إلى محاولة المؤرخ التونسي عثمان الكعاك في وضع أصول تاريخ للمسرح التونسي في دراسة له مبكرة نشرت في حلقات بين عامي 1945 و1946 في مجلة "المباحث" (عبازة، 2016) حاول فيها العودة إلى التاريخ القديم وإيجاد أصول في التراث اللاتيني والبربري.

إلى محاولة الباحث الأكاديمي محمد فريد غازي في التأريخ للمسرح التونسي واعتباره رائدا في ذلك منذ بداية الخمسينات من خلال دراسته المقتضبة والمكثفة حول نشأة المسرح العربي في تونس (غازي، 1951). كما يمكن أن نرصد منذ بداية السبعينات جهودا في مجال التأريخ المسرحي

الذي ساهم في تعميق الوعي بعراقة التجربة المسرحية التونسية وعلاقاتها العضوية بمسار الحركة الوطنية. ويمكن في هذا السياق أن نشير إلى الجهود الرائدة التي أنجزها الناقد والباحث والإعلامي منصف شرف الدين الذي لملم الذاكرة المسرحية التونسية من خلال كتابه الرائد "تاريخ المسرح التونسي، منذ نشأته إلى غاية الحرب العالمية الأولى" (الدين، تاريخ المسرح التونسي، منذ نشأته إلى نهاية الحرب العالمية الأولى، 1971) ، وهو أول كتاب تأريخي يحاول محاصرة تاريخ الجهود المسرحية التونسية منذ انطلاقتها في بداية القرن وطوال العشرية الأولى منه انطلاقا من العودة إلى آثار تلك الجهود في صحافة ذلك العصر. وما أنجزه المنصف شرف الدين في كتابه يعد أمرا في غاية الأهمية لأنه سيفتح بابا للبحوث التاريخية حول نشأة واستمرار الفعل المسرحي التونسي. وقد واصل الأستاذ منصف شرف الدين هذا الجهد التأريخي أيضا بخصوص التأريخ للأعلام المساهمين في تلك الجهود المسرحية، كما يدل كتابه الثاني "من رواد المسرحي التونسي" (الدين، من رواد المسرح التونسي وأعلامه، 1997) ، وكذلك مؤلف اللاحق الذي حاول فيه توسيع الرؤية التأريخية لتاريخ المسرح التونسي طوال قرنين من الزمن، أي الاهتمام بأول وفود هذا الفن المسرحي من أوروبا في القرنين الثامن والتاسع عشر على البلاد التونسية وموقف التونسيين سواء سلطة البايات أو العامة من هذه المظاهر "الفرجوية" الوافدة عليهم (Charfeddine). والجدير بالذكر أن ما أنجزه المنصف شرف الدين في المجال التأريخي لا يعتمد في الحقيقة منهجا تاريخيا بعينه بقدر انتهاجه لطريقة توصيفية تحاول تركيب المشهد التاريخي المسرحي من منطلق ما توفر له من وثائق تاريخية متاحة تعتمد ما ورد في الصحافة المكتوبة دون الجنوح إلى تحليل تلك المادة التاريخية الحاصلة.

ولعل جهد المنصف شرف الدين في هذا المجال التأريخي قد فتح مجال البحث التأريخي للمسرح التونسي، وهو ما سوف نلمسه عند باحث جامعي آخر مثل حمادي بن حليمة الذي تناول في مؤلف (Halima, 1974) نفس الفترة التاريخية المتعلقة بنشأة المسرح التونسي لينجز قراءة تاريخية أكثر تناولا للإشكاليات المتعلقة بتاريخ النشأة المسرحية واستمرارها سواء ما يخص تأصيل الظاهرة المسرحية في علاقتها الحضارية واهتمامه إلى جانب ببعض القضايا الاجتماعية المنعكسة في الحركة المسرحية التونسية طوال طوال خمسين عاما (1907 – 1957) كوضعية الفنان المسرحي والحالة الاقتصادية ومسألة الجمهور المسرحي ومسألة النقد والكتابة المسرحية . كما يمكن في هذا السياق التأريخي أيضا أن نشير إلى الاهتمام بالتأريخ للحركة المسرحية التونسية من خلال التأريخ للكتابة المسرحية وهو أمر جديد في هذا المشغل التاريخي. هذا وتعتبر مجهودات كل من الناقد الصحفي محمد السقانجي والكاتب المسرحي عزالدين المدني رائدة في هذا المجال حيث أن مؤلفهما "رواد التأليف المسرحي في تونس" (محمد السقانجي و عزالدين المدني، 1986)سيعد منطلقا لعناية البحوث التأريخية للمسرح التونسي من خلال الكتابة والتأليف المسرحي والذي سوف يستكمل لاحقا بالمجهود الضخم الذي قام به الباحث والأكاديمي محمد المديوني في لملمة وتحقيق المدونة الواسعة للتأليف المسرحي ضمن مشروع "الرصيد المسرحي".

ولعل أهم محطة في المشغل التأريخي وخاصة على المستوى الأكاديمي هي تلك الجهود التي قام بها الباحث والمؤرخ محمد مسعود إدريس الذي وضع منهجا علميا دقيقا في كتابة تاريخ للمسرح التونسي من خلال العودة إلى المادة الأرشيفية المتعلقة بالمسرح التونسي وإعادة قراءتها وتبويبها وضبط مادتها وتحقيقها وانتخاب أهم المواد الأرشيفية المعبرة على المسار التطوري للمسرح التونسي في علاقته بالتحولات التاريخية و الاجتماعية، سواء تعلق الأمر بالمادة النقدية المسرحية أو بعلاقة المسرح بالحياة السياسية ضمن تطور الحركة الوطنية أو بالحياة المسرحية نفسها في ما يخص أنشطة الفرق المسرحية و توجهاتها وفاعيليها ،ومكانة المرأة ودورها في هذا الحراك ،وعلاقة الحياة المسرحية بالمسألة الاقتصادية. ومن الجهود الدراسية الأكاديمية البارزة أيضا المنخرطة في المشغل التأريخي والتي نحت نحوا تأليفيا وتحليليا يمكن أن نشير إلى ما كتبه الباحث محمد عبازة الذي اهتم بتطور الفعل المسرحي منذ بدايات حضور المسرح المصري في تونس منذ العشرية الأولى من القرن العشرين ووصولا إلى العشرية الأخيرة منه. حيث توقف الباحث عند الجزء الأول من دراسته (عبازة، 2016) عند سلسلة من المحاطات التاريخية كالبدايات الأولى مع وفود الفرق المسرحية المصرية ومحطة

التمهيد للتأسيس المتمثلة في انتشار الفرق والجمعيات المسرحية التونسية بعد الحرب العالمية الثانية، ووصولا محطة التأسيس المتمثلة في بعث الفرقة البلدية. أما الجزء الثاني من دراسته (عبازة، تطور الفعل المسرحي بتونس من اللامركزية إلى التجريب، 2016) والتي رصد فيها تطور الفعل المسرحي من خلال سلسلة القطائع التي حدثت في المسرح التونسي بعد تأسيس الفرقة البلدية وقد توقف محمد عبازة في هذا السياق على ثلاث قطائع رئيسية في التجربة المسرحية التونسية وهي القطيعة الأولى التي أحدثتها الفرقة القارة بالكاف في سياق المسرحي الجهوي، والقطيعة الثانية التي مثلتها تجربة فرقة المسرح الجديد، والقطيعة الثالثة التي مثلها المسرح المثلث مع المسرحي الحبيب شبيل.

8. النقد المسرحي وجهود الدراسات الأدبية

من المفارقات أن هذا الجانب من الدراسات الأدبية لم يتطور بالشكل الملحوظ في إطار الدراسات المسرحية وقد يعود هذا الأمر ربما إلى عدم الاعتراف الحقيقي بالأدب المسرحي التونسي في الجامعة التونسية سواء على مستوى التدريس أو الدراسة رغم انفتاح الجامعة التونسية فيما يخص الدراسات النقدية الأدبية على المناهج الحديثة مبكرا سواء فيما يتعلق باللسانيات الحديثة أو فلسفة اللغة أو المنهج البنيوي. فالنص المسرحي ظل نصا دخيلا وعصيا على الدراسة إلا فيما ندر، ودراسات النقد الأدبي المقاربة للنصوص المسرحية غاية في الندرة. ولعل الباحث والأكاديمي محمد المديوني يمثل استثناء في تنواله بالدراسة النقدية التي تعتمد المقارنة البنيوية لنصوص الكاتب المسرحي عز الدين المدني (المديوني، 1983). كما حضي الكاتب الأديب والكاتب المسرحي محمود المسعدي ببعض الدراسات النقدية الأدبية خاصة مسرحيته "السد" بسبب كون نصوص هذا الكاتب مدرجة ضمن المقرر التعليمي للباكالوريا لعدة سنوات إلى اليوم مما يفسر هذه العناية به، ويمكن أن نذكر في هذا السياق دراسة محمد الحبيب علوان بخصوص الخطاب وبنيته (علوان، 1979) ، ونذكر أيضا وفي نفس هذا المشغل النقدي ولكن بأكثر تمكن معرفي وإلمام بالمناهج الحديثة دراسة مقاربة الخطاب المسرحي في نص "السد" وتفكيكه من ناحية العلاقات والدلالات ومسألة توظيف التراث ومسألة التّناص (ألفة يوسف وعادل خضر، 1994) . والجدير بالذكر أنه أمام هذا الضمور في دراسة النص المسرحي التونسي فإن النص المسرحي التونسي لا يزال يعاني من التجاهل والإهمال في أقسام الآداب

9. النقد المسرحي والجهد التنظيري

يعد التنظير المسرحي من لأهم ثوابت المعرفة النقدية بل من أقصى ذراها. وتشكل متن تنظيري في المسرح دليل على حيوية الفعل المسرحي نفسه وانخراطه في اجتراح الأفكار والمفاهيم، ففي سياق التنظير المسرحي يتم التجاوز وإحداث القطائع في الممارسة المسرحية وحملها إلى مرتبة الاختبار والتجريب. والتنظير المسرحي في سياق المسرح التونسي يكاد لا يتجلى بشكل واضح بل ربما يتم العثور على نواتاته المحتشمة في تلابيب بعض الكتابات النقدية التي تلامس أفق التنظير. ويكاد المسرح التونسي يفتقد لهذا النوع من الجهد النقدي النظري الذي نسميه تنظيرا والذي من شروطه أنه يعلن بإحداث قطيعة ما في تجربة مسرحية بعينها ويبشّر أو يتطلع إلى تقديم أو رسم أفق جديد لممارسة مسرحية جديدة إما على مستوى الكتابة المسرحية أو على مستوى الصياغة الجمالية للفرجة المسرحية. والتنظير ينتجه عادة إما النقاد المفكرون في الشأن المسرحي بوصفهم قادرين على رصد التحولات وتمثل المسارات الإبداعية وإما المبدعون أنفسهم الذين تربطهم علاقة عضوية بالعملية الإبداعية نفسها.

والناظر في مسار التونسي منذ انخراطه فيما يسمى بحداثة المسرح سيدرك عدم تمكن رجل المسرح التونسي سواء كان ناقدا أو منخرطا في العملية الإبداعية من القدرة على التنظير فيما يخص مشغله المسرحي، خاصة وأن أغلب المبدعين من رجالات المسرح لا يهتمون بالمسألة النظرية التي تخص مسار أعمالهم، وهم منقطعون على التفكير النظري في منجزهم مما يفسر غياب كتاباتهم حول تجاربهم وقد يعود ذلك ربما لعدم انتصاب هذا التقليد الذي نعرفه عند رجالات المسرح في الغرب الذي يكتبون ويفكرون حول أعمالهم كحاجة ضرورية لمراجعة المسار والمضي به قدما نحو آفاق جديدة. هذا لا يعني أن لا وجود لهذا التنظير طوال هذا التطور الذي شهده المسرحي التونسي منذ الستينات إلى اليوم بل أن هناك بعض الشذرات المبثوثة

هنا وهناك في بعض الكتابات كما هو الحال في مقالة الفيلسوف يوسف الصديق حين طرح سؤال المسرحة *(la théâtralité)* في سياق الثقافة العربية الإسلامية (الصديق، العدد 8)، وهو سؤال تنظيري على غاية من الأهمية لايزال معلقا إلى اليوم. وفي هذا السياق ينفرد الكاتب المسرحي عزالدين المدني بالتنظير لمسرحه خاصة في عشرية السبعينات من القرن الماضي. فالكاتب مشغول بمسألة التجريب لا في الكتابة المسرحية فحسب في مجمل نظرية الأدب وخاصة فيما يتعلق بفن السرد أنواعه من الأدب الشعبي وصولا للقصة والرواية، وعلاقة الأدب الحديث عموما بالتراث وكيفية الاستفادة منه (المدني، معالجة التراث واستعماله في الأدب التونسي الحديث، 1978).وقد ساعده مثل هذا الاهتمام على الانخراط في ممارسة التنظير حول ممارسته في الكتابة المسرحية وهو تنظير حاول فيه التبشير بصياغة جديدة للكتابة المسرحية الجديدة الخاصة به وبتأصيل جملة تصوراته حول الفرجة المسرحية المنشودة وكذلك برسم علامات طريق تحدد رؤيته الشخصية للمسرح وآفاقه الجديدة، ونلمس هذا خاصة في نصه الشهير" نحو كتابة عربية حديثة" (المدني، 1978) والذي يمكن أن نعتبره بيانا مسرحيا فريدا في تاريخ المسرح التونسي الحديث.

10. النقد المسرحي السياسي والأيديولوجي

لا شك أن النقد المسرحي مهما كان انتسابه الفكري يعبر بشكل ما عن تبن ما لرؤية سياسية أو أيديولوجية. والثابت أن النقد المسرحي في تونس قد تأثر ممارسوه بالتيارات والمدارس النقدية الغربية التي اعتنقت قناعات سياسية وأيديولوجية كالفكر الماركسي عموما وتيار الواقعية الاشتراكية والطلائعية، علاوة على التأثر الكاسح بالنظرية البريشتية فيما يخص الملحمية والتغريب والالتزام بقناعة وجوب علاقة المسرح بالتغيير الاجتماعي. والناظر في هذا الاتجاه سيقف عند هذا النوع من الخطاب النقدي في المسرح التونسي خاصة في العشريات التي شهدت تحولات اجتماعية وأزمات اقتصادية وسياسية عميقة وحركات احتجاجية ضد الأوضاع العامة في البلاد. وقد أنتج هذا المناخ العام جنوحا في الوعي النقدي المسرحي بوجوب إلتزام الإنتاج الرمزي والفني بمجمل القضايا الاجتماعية والالتصاق العضوي بها مما أسس لهذا النوع من النقد المسرحي الذي تحركه قناعات إيديولوجية وخلفيات سياسية احتجاجية. ولعل أبرز من يمثل هذا التيار النقدي هو ما كتبه الناقد أحمد حاذق العرف في سلسلة مقالاته المنشورة في تونس وفي بيروت في سبعينات وثمانينيات القرن الماضي والتي جمعت فيما بعد في كتاب (العرف، 1997) حول أهم التجارب المسرحية التونسية سواء مسرح الهواة أو المسرح الجامعي (العرف، المسرح التونسي وعوائق التجاوز، 1997) أو مجمل التجارب الاحترافية الأخرى كتجربة علي بن عياد وتجربة المنصف السويسي وتجربة مسرح الجنوب بقفصة وتجربة فرقة المسرح الجديد. والجدير بالذكر أن هذا النقد المسرحي ليس بالنقد الأيديولوجي المبتذل بقدر كونه نقدا مسرحيا لا يخفي تمثله وفهمه للتمفصلات الخفية المؤثرة في الإنتاج المسرحي وعلاقته بالسياسة الثقافية للدولة والكشف عن بنية العقل الثقافي الرسمي وتصادمه مع العقل الإبداعي المسرحي. وقد شكلت كتابات أحمد حاذق العرف تمهيدا لظهور دراسات أكاديمية تهتم بمسألة العلاقة بين المسرح التونسي وعلاقته بالسياسي.

11. النقد المسرحي والمقاربات السوسيولوجية

على ضوء تطور الدراسات والبحوث السيوسيولوجية في الجامعة التونسية منذ بعث قسم علم الاجتماع في كلية الآداب والعلوم الإنسانية بتونس اهتم الباحثون في هذا الحقل المعرفي الهام بالمسألة الثقافية وعلى رأسها الفن المسرحي. وقد يعود ذلك الاهتمام السوسيولوجي بالمسرح لتأثير الأستاذ جون دوفينيو الذي درس أربع سنوات (1961- 1965) كأستاذ محاضر في جامعة تونس وهو الجامعي الذي أثرت أطروحته "سوسيولوجيا المسرح" على أجيال عديدة من الباحثين التونسيين، ولا غرابة أن أحد طلابه وهو الباحث محمد مسعود إدريس يعد من الباحثين البارزين الذين انتهجوا المقاربة السوسيولوجية لدراسة المسرح التونسي ، كما لا تخلو دراساته التاريخية التي أشرنا إليها سابقا من تناول العديد من القضايا التي تخص المسرح التونسي في علاقته بالتحولات الاجتماعية (العرف، المسرح الجامعي بين الأصالة والتجديد، 1972) وطبيعة بنية الذهنيات وعلاقتها بالمسرح (إدريس، أثر التغييرات الاجتماعية وتطور العقليات في نشأة المسرح التونسي، 1995).

ويمكن اعتبار أبحاث الباحث محمد مسعود إدريس في مجال المسرح التونسي أبحاثا تقرأ التاريخ المسرحي قراءة سوسيولوجية تفهمية تنطلق من فهم عميق للتاريخ الحديث والمعاصر مع ربط دائم بواقع التحولات التي تعيشها النخب الثقافية. ولقد مهدت هذه البحوث العليمة بالمسرح لبعض من علماء الاجتماع المختصين ليهتموا بالمسألة المسرحية كفعل اجتماعي وكعالمة الاجتماع بدرة بشير وعالم الاجتماع المختص في المسألة المغاربية المنصف وناس. فالنسبة لبدرة بشير يعد مؤلفها "عناصر من الفعل المسرحي في تونس" (Bchir, 1993) من أهم القراءات المنجزة لتاريخ الحداثة المسرحية في علاقتها بالسلطة والثقافة والتحولات السياسية والاقتصادية وكذلك حول وضعية الفنان المسرحي التونسي ومواجهته للعراقيل المتعلقة بالإنتاج المسرحي ومسألة الهوية في مواجهة الديكولونيالية ورصد التعبيرات المسرحية الجديدة في علاقتها بالتغيير الاجتماعي. أما أبحاث عالم الاجتماع المنصف وناس حول المسرح في تونس فتنخرط ضمن اهتماماته حول المسألة الثقافية والدولة، وتنخرط أبحاثه في إطار علم الاجتماع الثقافي وقد خصص كتابه حول التجربة المسرحية التونسية "منطلقات وتوجهات التجربة المسرحية في تونس" (وناس، 1985) على تحديد بنائية وارتكازات التجربة المسرحية التونسية وتوصيف التركيبة المسرحية وعلاقتها بالعناصر المكونة لها واستقراء تجربة المسرح التونسي على ضوء إشكالية إعادة انتاج الفضاء الاجتماعي ومسألة الهوية والانتماء وغياب البديل الحضاري في بعض التجارب المسرحية ومن الملاحظ أن مقاربة منصف وناس لمسألة الحداثة المسرحية على صحة التمشي المنهجي تلتقي ببعض القناعات الأيديولوجية. وإلى جانب هاذين الباحثين يمكن الإشارة أيضا إلى جهود الناقدة المسرحية فوزية المزي وهي جهود نضجت على مواكبة الحركة المسرحية التونسية وامتهانها للممارسة النقد الثقافي في الصحافة المكتوبة وتعد دراستيها "ثلاثون سنة من المسرح التونسي، مدخل لمقاربة اجتماعية" (المزي، 1992) و"المسرح والتغيير الثقافي في تونس الثمانينات " (المزي، المسرح والتغيير الثقافي في تونس الثمانينات) نموذجا لهذا الترابط المتين بين الممارسة النقدية المسرحية على خلفية فكرية سوسيولوجية. كما أن البحوث الجامعية و خاصة الأطاريح الأكاديمية خاصة تلك التي أنجزها أصحابها في الجامعات الفرنسية فقد تبنت هي بدورها المقاربة السوسيولوجية كأطروحة محمود الماجري التي تناولت التحولات الاجتماعية والثقافية في المسرح التونسي المعاصر (Mejri, 1985)، وأطروحة عزالدين العباسي حول تحولات ومشاكل الكتابة المسرحية ما بعد الفترة الاستعمارية (Abassi, 1985)، وكذلك أطروحة رضا بوقديدة حول المسرح التونسي وعلاقته بالحداثة ضمن التحولات الاجتماعية (Boukadida, 2003). وتعد هذه الأطاريح وغيرها قاعدة بحثية هامة ساهمت في تطور البحوث المسرحية اللاحقة التي تنتهج مقاربة المسرح التونسي مقاربة سوسيولوجية. ولا تتم البحوث المسرحية ذات المنحى السوسيولوجي دون اعتبار للبحوث والدراسات الأنثروبولوجية الثقافية التي تناولت المسرح والفرجة.

12. النقد المسرحي والمقاربة الأنثروبولوجية

من الطبيعي أن تكمل البحوث والدراسات الأنثروبولوجية الدراسات السوسيولوجية حول المسرح في تونس. لذلك نجد هذا التواجش بين المجالين ولا غرابة أنه من المهتمين بالمقاربات السوسيولوجية حول المسرح يلتفتون إلى المجال الأنثروبولوجي. ويبدو أن البحوث والدراسات التي نسمها اليوم بالبحوث الأنثروبولوجية قد بدأت مبكرا في سياق هذه المعرفة النقدية قبل أن تستقيم الأنثروبولوجيا أو بأكثر دقة علوم الثقافة ضمن أنساق علمية ومعرفية محددة. الناظر في تاريخ الجهود البحثية في تونس سيقف عند اهتمام التونسيين مبكرا وبشكل عفوي وبالثقافة الشعبية ذات الصلة المتينة بالتراث والفرجوي يكفي في هذا الإطار أن نذكر ما حفظه محمد عثمان الحشايشي في كتبه "الهدية" (الحشايشي، 2003) من توصيف للعادات والتقاليد التونسية وممارستهم لجملة من المظاهر الاحتفالية في حياتهم اليومية، أو ما رصده الصادق الرّزقي من أنواع الفنون الغنائية والحكائية واللعبية في الثقافة التونسية التقليدية (الرزقي، 1973). كانت تلك الكتابات بمثابة خلفية مهمة للقادم من البحوث والدراسات الأنثروبولوجية حول المسرح ومظاهر الفرجة التقليدية تحت تأثير جون دوفينيو ثم مع الأنثروبولوجيا البنيوية مع كلود لفيس ستروس. ونعتقد أنه أول من دشن هذا المجال البحثي في التراث الشعبي المتصل بالفرجة المسرحية هو الباحث محمد عزيزة حين كتب عن أشكال التقليدية للفرجة في تونس (Aziza, 1975) في بداية

سبعينات القرن العشرين قبل أن يوسع مبحثه حول المسرح والثقافة الإسلامية (عزيزة، 1988) .ويمكن اعتبار أهم دراسة أنثروبولوجية جدية على المستوى المنهجي و كذلك على مستوى راهنية تطور المسرح والفرجة هي دراسة محمد مسعود إدريس التي سوف تكون تدشينا لا لمجال البحث في الفرجة والموروثات الشعبية فحسب بل سوف تعطي الشرعية لممارسات ثقافية وفرجوية قادمة سيمارسها الفنان المسرحي الفاضل الجزيري في أعماله الفنية سواء في فرجة "التوبة" أو "الحضرة" وهي أنواع من الفرجة المستحدثة التي يتم فيها تقديم قوالب قديمة في أشكال جديدة .كما يمكن في هذا السّياق من البحوث والدراسات أن نشير إلى أبحاث حافظ الجديدي حول فرجة "اللزّام" المغاربي (Djedidi, 2005) وقد وسّع الباحث هذا الاهتمام الأنثروبولوجي ليتناول في دراسات أخرى علاقة المسرح بالموروث الثقافي وكذلك التحولات الطارئة على أشكال الفرجة التقليدية (Djedidi, Faits et états des formes spectaculaires, 2016).

13. النقد المسرحي والمقاربة السيميولوجية

يمكن اعتبار ظهور الجهد النقدي السيميولوجي استكمالا لـ " ازدهار" البحث اللساني بشكل عام في بداية الثمانينات في الجامعة التونسية ويكاد يستفرد الناقد المسرحي والأكاديمي محمد مومن بهذا الحقل النقدي والمعرفي القائم على المقاربة السيميولوجية التي تناولت بالأساس العرض المسرحي التونسي الحديث. ويمكن أن نقسم هذا الجهد النقدي إلى مجالين، مجال التعريف بسيميولوجيا المسرح وأهميتها ومجال الممارسة النقدية في الكتابة عن العروض المسرحية التونسية ومقاربتها مقاربة سيميولوجية. فأما الجهد التعريفي بالسيميولوجيا المسرحية فقد احتضنته مجلة "فضاءات مسرحية" وقد مهد الباحث لهذا الجهد بالدفاع عن الوظيفة الجديدة للقراءة النقدية المسرحية ودفعها نحو صياغة جديدة للكتابة النقدية (مومن، 1985) ، كما استعرض في دراستين أساسية مشروع المقاربة النقدية السيميولوجية ، حيث خصص المقالة الأولى لتحديد آليات ومفاصل التحليل السيميولوجي لفن الأداء التمثيلي (مومن م.، 1986) وخصص الثانية للمسألة التلقي وفقا لرؤية العلاماتية (مومن ح.، لذة المشاهدة، مدخل إلى دراسة علاماتية ، 1987) والمقالتان تختزلان أهم ملامح المشروع السيميولوجي المسرحي كما ورد عند رولان بارط وآن أبورسفيلد، والجدير بالذكر أن الباحث محمد مومن قد تزامن نشره لهاتين المقالتين مع فترة تدريسه للتحليل السيميولوجي في المعهد العالي للفن المسرحي .وإلى جانب هذا المشغل التعريفي مارس محمد مومن في قراءاته النقدية للأعمال المسرحية التونسية خاصة أعمال فرقة المسرح الجديد حيث رسخ من خلال (Moumen, 1986) ذلك (مومن م.، من رائع المسرح التونسي "غسالة النوادر" للمسرح الجديد، 2000) هذا النهج الجديد من القراءة العاشقة (مومن م.، اتجاهات الإبداع المسرحي لسنوات 1980 – 1990) المتأثرة بالإنتباهات السيميولوجية خاصة عن رولان بارط. كما يمكن أن نشير إلى هذه المقاربة السيميولوجية في الممارسة النقدية عنده قد بشرت بأفق جديد في شواغل النقد المسرحي المتمثل في أفق القراءة الجمالية المسرحية وهو ما ندركه في حين يقترح الناقد قراءة جديدة للمسرح التونسي تعتمد استقراء التوجهات الفنية والجمالية للحركة الإبداعية المسرحية في تونس هو أفق لا يزال مفتوحا إلى اليوم سواء أمام المعرفة المسرحية أو الممارسة النقدية المسرحية المحضة.

خاتمة

نؤكد مرة أن هذه البانوراما حول الجهود النقدية والبحثية في المسرح التونسي والتي تغطي الفترة من بداية المغامرة المسرحية في تونس إلى ما بعد فترة التسعينات قد حاولت الإشارة إلى أبرز المراحل التي مرت به هذه الجهود وكيف شكلت في الحقيقة أهم المسارات التي سلكها النقد المسرحي في تونس لا بوصف هذا النقد ميزانا معيارا أو ذوقيا للفعل المسرحي بل بوصفه معرفة مسرحية تتراكم وتتطور وتبلور شواغلها وتحدد مواضيع عملها وفي علاقتها بمناهج العلوم الإنسانية. ولا تستجيب هذه البانوراما في الحقيقة إلى كل مظاهر النقد فهي لم تقف على مختلف مظاهره في الصحافة السيارة بل انتخبت أهم علاماته المؤثرة والمؤسسة لهذه الاتجاهات. كمل لا يفوتنا أن نشير إلى أن هذه البانوراما لم تتعرض لعدة مسائل مرتبطة كمعوقات الممارسة النقدية، ولإشكاليات الكتابة بالفرنسية والعربية، وموقع النقد المسرحي من النقد الثقافي العام، ووضعية الناقد المسرحي في

علاقته وموقعه من السياق الثقافي العام. ودون ذلك تظل هذه البانوراما منقوصة لا تدعي الكمال لكنها تظل في ظننا علامات طريقا لدراسة أكثر عمقا وتفصيلا.

قائمة المراجع:

باللغة العربية:

– أحمد الحاذق العرف، المسرح التونسي وعوائق التجاوز، سلسلة المسرح الحي، (دراسات)، دار الجنوب، تونس 1997.

– أحمد الحاذق العرف، المسرح الجامعي بين الأصالة والتجديد، مجلة الشباب، عدد 09، فيفري – مارس 1972.

– الحبيب بورقيبة، "حتى نبني المسرح التونسي على أسس ثابتة " خطاب ألقاه فخامة الرئيس الحبيب بورقيبة في 07 نوفمبر 1962، ضمن كتاب خطب، الجزء الرابع عشر، نشريات وزارة الإعلام، المطبعة الرسمية، تونس 1979.

– الصادق الرّزقي، الأغاني التونسية، الشركة التونسية للتوزيع 1973.

– ألفة يوسف وعادل خضر، بحوث في خطاب السد المسرحي، مطبعة الاتحاد، تونس 1994.

– المنصف شرف الدين، تاريخ المسرح التونسي، منذ نشأته إلى نهاية الحرب العالمية الأولى , نشر دار العمل , تونس 1971.

– المنصف شرف الدين، من رواد المسرح التونسي وأعلامه، المكتبة العتيقة، تونس 1997.

– المنصف وناس، منطلقات وتوجهات التجربة المسرحية في تونس، دار الحرية للطباعة، بغداد 1985.

– بوبكر خلوج وآخرون، قرن من المسرح التونسي، استكتاب جماعي، نشر وزارة الثقافة والدار العربية للكتاب، تونس.

– جون دوفينيو، المسرح والتغيير الاجتماعي، المعهد العالي للفن المسرحي وسحر للنشر، تونس 1995.

– حسن الزمرلي، " هلموا نبن مسرحنا القومي "، مجلة الفكر، عدد جويلية 1961.

– حمد مسعود إدريس وحافظ الجديدي، بدايات النقد المسرحي في تونس من خلال مساهمات بورقيبة والجزيري وبوسنينة، منشورات المعهد العالي للفن المسرحي بتونس، وحدة الجماليات المسرحية والأنتوسينولوجيا، دار سحر للنشر تونس 2011، ص 25

– عبد الحليم المسعودي، المسرح التونسي جدلية الجمالي والسياسي، أطروحة دكتوراه، المعهد العالي للفنون الجميلة بتونس، جامعة تونس، 2009 – 2010 ص 178-174.

– عبد الحليم المسعودي، بورقيبة و المسرح، قراءة في بيان خطاب تأسيسي، دار آفاق – برسبكتيف ، تونس 2016.

– عز الدين المدني، "نحو كتابة عربية حديثة" (بيان في شكل شذرات)، مجلة الحياة الثقافية، العدد 04، السنة 1978، تونس، ص 5-16.

– عزالدين المدني، "معالجة التراث واستعماله في الأدب التونسي الحديث "، (مداخلة ندوة دراسات ملتقى يحي بن عمر – سوسة)، ضمن الكتاب الجماعي " التراث في البناء الحضاري المعاصر "، منشورات الحياة الثقافية، وزارة الشؤون الثقافية، تونس 1978.

– فرقة "النجمة " 1908 وفرقة الشهامة 1910 وفرقة "الآداب" عام 1912,

– فوزية المزي: ثلاثون سنة من المسرح التونسي، مدخل لمقاربة اجتماعية، (مقال)، مجلة الحياة الثقافية التونسية، العدد المزدوج 64-65, لسنة 1992

– فوزية المزي، المسرح والتغيير الثقافي في تونس الثمانينات، (ضمن) الكتاب الجماعي،" المسرح والتغيير الاجتماعي"، مرجع مذكور.

– محمد الحبيب علوان، محاولة في فهم لرواية السد، دار بوسلامة للطباعة والنشر والتوزيع، تونس 1979.

– محمد السقانجي وعزالدين المدني، رواد التأليف المسرحي في تونس، طبعة أولى، الشركة التونسية للنشر، تونس 1986.

– محمد المديوني، مسرح عزالدين المدني والتراث، رسم للنشر، تونس 1983.

– محمد بن عثمان الحشايشي، العادات والتقاليد التونسية، الهدية أو الفوائد العلمية في العادات التونسية، دراسة وتحقيق الجيلاني بن الحاج يحي، الطبعة الثالثة، سراس للنشر، تونس 2003

– محمد عبازة، تطور الفعل المسرحي بتونس من اللامركزية إلى التجريب، مركز النشر الجامعي، سحر للنشر، تونس 2016.

– محمد عبازة، تطور الفعل المسرحي بتونس من النشأة إلى التأسيس، مركز النشر الجامعي، دار سحر، تونس2009 ص، 15.

– محمد عزيزة، الإسلام والمسرح، ترجمة الدكتور رفيق الصبان، دار عيون، الدار البيضاء، المغرب 1988.

– محمد فريد غازي، المسرح العربي في تونس تاريخه واتجاهاته من نشأته إلى سنة 1912، مجلة الفكر عدد جويلية، 1951.

– محمد مسعود إدريس، "أثر التغييرات الاجتماعية وتطور العقليات في نشأة المسرح التونسي" المنشورة في الكتاب الجماعي للمؤتمر الدولي الرابع لسوسيولوجيا المسرح الذي نظمه المعهد العالي للفن المسرحي بتونس بالتعاون مع مركز سوسيولوجيا المسرح (بلجيكيا) في الحمامات (23-24 مارس 1995) تحت عنوان "المسرح والتغيير الاجتماعي" والذي قدمه جون دوفينيودار، نشر المعهد العالي للفن المسرحي وسحر للنشر تونس 1995.

– محمد مسعود إدريس، حافظ الجديدي، بدايات النقد المسرحي في تونس من خلال مساهمات بورقيبة والجزيري وبوسنينة، (جمع وتقديم وتحقيق)، منشورات المعهد العالي للفن المسرحي بتونس، وحدة الجماليات المسرحية والأنتوسينولوجيا، دار سحر للنشر تونس 2011.

– محمد مسعود إدريس، دراسات في تاريخ المسرح التونسي1881-1956، منشورات المعهد العالي للفن المسرح، دار سحر للنشر، الطبعة الأولى، تونس1993. ص 10، و21، و 123

– محمد مسعود إدريس، في تاريخ المسرح التونسي، نصوص ووثائق، دار سحر، تونس، 2007

– محمد مومن، التحليل العلاماتي لفن أداء الممثل المسرحي، مجلة فضاءات مسرحية، المسرح الوطني التونسي، العدد المزدوج 6/5، السنة الثانية، 1986.

– محمد مومن، لذة المشاهدة، مدخل إلى دراسة علاماتية، مجلة فضاءات مسرحية، المسرح الوطني التونسي، العدد المزدوج 8/7، السنة الثالثة 1987.

– محمد مومن، من رائع المسرح التونسي "غسالة النوادر" للمسرح الجديد، الحياة الثقافية التونسية، العدد 118، تونس 2000.

– محمد مومن، نحو كتابة للقراءة، مجلة فضاءات مسرحية، المسرح الوطني التونسي، ال عدد2، السنة الأولى، 1985.

– يوسف الصديق، " نحو مسرحة ذات أرضية عربية إسلامية – ثم ماذا؟"، مجلة ثقافة، دار الثقافة ابن خلدون (د.ت) العدد الثامن.

بوبكر خلوج، المنصف شرف الدين، حمدي الحمايدي، أحمد حاذق العرف، قرن من المسرح التونسي، نشر وزارة الثقافة والدار العربية للكتاب، تونس 2001، ص 23-27.

-محمد مومن، اتجاهات الإبداع المسرحي لسنوات 1980 – 1990، الميراث والآفاق، ضمن الكتاب الجماعي "دراسات في المسرح التونسي " منشورات مجلة الحياة الثقافية التونسية، تونس (د-ت).

باللغة الأجنبية:

– Moncef Charfeddine : Deux siècles de théâtre en Tunisie, Les Edition Ibn Charaf, Tunis (s.d).

– Badra Bchir: Eléments du fait théâtral en Tunisie ،Cahier du CERES , Série Sociologique, n° 22, Université de Tunis I , Tunis 1993.

– Ezzidine Abassi:L'écriture théâtrale en Tunisie post-coloniale (1964-1982), mutations et problèmes, Thèse de doctorat de 3éme Cycle , Sous la direction de Mme Jacqueline Jomaron , Université de Paris X-Nanterre , decembre1985

– Hafedh Djedidi : Dramaturgie et mise en spectacle, Esthétique et enjeux de la représentation, Dar El – Mizen. Sousse, 2005

– Hafedh Djedidi : Faits et états des formes spectaculaires, L'Or du Temps, Tunis 2016.

– Hammadi Ben Halima : Un demi-siècle de théâtre arabe en Tunisie (1907 – 1957), Publication de l'université de Tunis, 1974.

– Hammadi Ben Halima : Un demi-siècle de théâtre arabe en Tunisie (1907 – 1957), Publication de l'université de Tunis, 1974.

- Jean Duvignaud, Les constantes de la critique théâtrale, in, Sociologie du théâtre, PUF, Paris, 1965, p.45.

– Jean Duvignaud, Les constantes de la critique théâtrale, in, Sociologie du théâtre, PUF, Paris, 1965

– Mahamed Massaoud Driss : Traditions orales et spectacles contemporains en Tunisie /Décadences et évolution, Paris I, 1979-1980, Thèse de 3eme cycle.

– Mahmoud, Mejri : La nouvelle thématique dans le théâtre tunisien contemporain, mutations socio – culturelles et activité théâtrale, Thèse de 3eme cycle, sous la direction de Michel Barbot, Université de Paris IV, novembre 1985.

– Mohamed Aziza : Les formes traditionnelles du spectacle en Tunisie, STD, Tunis 1975.

– Moncef Charfeddine : Deux siècles de théâtre en Tunisie, Les Edition Ibn Charaf, Tunis (s.d).

– Ridha Boukadida , : Le théâtre tunisien face à la modernité : la scène dans une société en mutation , Thèse de doctorat , discipline : Etudes théâtrales , sous la direction du professeur Robert Abirached , Université Paris x , 2003.

– Mohamed Moumen , '' Le Nouveau Théâtre, Stade suprême de la théâtralité '' Dossier culturel, In, La Presse 14 mars 1986.